آثار حوض الفرات
في القطر العربي السوري

بقلم : قاسم طوير

يقطع الفرات مسافة حوالي ٦٠٠ كم ضمن اراضي الجمهورية العربية السورية ، ويطلق على الاراضي الواقعة الى يمينه اسم الشامية وتعرف الاراضي الواقعة الى يساره باسم الجزيرة .

شق الفرات طريقا له في الهضاب والسهول وحفر خلال العصور الطويلة اكثر من سرير تجاوزت واتصلت عبر الازمنة لتشكل منخفضا يتسع ويضيق حسب طبيعة الارض . تعرف النقاط التي يضيق فيها وادي الفرات باسم (الخانوقة) أي يختنق بين هضبتين صلدتين صمدتا أمام حت النهر ، ومثال على ذلك خانوقة حلبية وزلبية (١) الى الشمال الغربي من دير الزور . أما الوادي العريض أو الحوض فيعرف باسم (الزور) ، وهذه الكلمة قديمة قدم التاريخ فهي معروفة في اللغات الاكادية والبابلية وغيرها وتعني الالتواء أو الاعوجاج كما وردت في النصوص الجغرافية اليونانية والرومانية .

يحتفظ النهر باسم (الفرات) منذ العصور القديمة ولم يطرأ عليه اي تغيير او تحريف فالاسم يرد كما هو في النصوص المسمارية الاكادية والبابلية وغيرها ومثله في ذلك مثل رافديه الخابور والبليخ .

معلوم ان مواطن الماء هي مواطن استقرار الانسان ، فلا حياة بدون الماء ، لذلك لا نستغرب اذا اجتذب الفرات الانسان منذ العصور السابقة للتاريخ . ولقد عثر الاثريون في منطقة الفرات والبليخ قرب الرقة على أدوات صوانية مختلفة من صنع الانسان تعود الى نصف مليون عام قبل الميلاد .

ذكرنا أن الفرات حفر لنفسه واديا عريضا يعرف الان باسم حوض الفرات ، ويتراوح عرض هذا الوادي بين ٣ ــ ٨ كم في منطقة بحيرة الاسد وقد يصل الى أكثر من ذلك في أماكن أخرى . كان النهر يخلف أرضا لحقية خصبة على جانبيه بعد كل فيضان ، وكان ذلك سببا في اجتذاب الانسان وفي غرس مواطن الاستقرار (ممارسة الزراعة) . لكن لهذا الوجه الايجابي للنهر وجه سلبي آخر ، فالفرات كان يغير مجراه بعد كل طوفان او فيضان كبير وقد يحدث هذا كل بضعة عقود او كل بضعة قرون ، وسبب ذلك يكمن في طبيعة الارض الهشة التي يسير عليها النهر . ولا تلجم انجرافه الا الخانوقة كما اسلفت . ان ابتعاد الفرات عن مجراه السابق يعني حرمان مواطن الاستقرار البشري على ضفتي مجراه السابق من اهم أسباب الحياة ، وهو الماء . كان الفرات يحاذي سور الرقة ولقد اصبحت الرقة « مدينة خراب ليس بها انيس » في ايام المؤرخ أبي الفداء (١٢٥٩ م) وبعد انقطاع قرون عاد

الاستيطان اليها في القرن التاسع عشر ليجد الناس ان الفرات وقد ابتعد عن الرقة أكثر من كيلو مترين . وظل اهل الرقة في زماننا يشربون من مياه الابار حتى بضع سنين خلت .

في مثل هذه الاحوال يتحتم على البشر جر المياه بواسطة الاقنية من مجرى الفرات الجديد اذا توفرت الخبرة وتيسر المال ، أو الاعتماد على حفر الآبار . وهذا يعني الانكماش في الاراضي المزروعة وطغيان العسر على اليسر وبالتالي تتحول مواطن الاستقرار من حالة المدن او البلدان الميسورة الى مستوى القرى الفقيرة الحال .

واذا لم يكن بالامكان جر الاقنية أو حفر الابار فلا بد عندئذ من شد الرحال واللحاق بالمجرى الجديد للفرات لاختيار المكان المناسب للاستقرار .

في حين ينتهي فيضان النيل في شهر تشرين الثاني من كل عام والزراعة الشتوية تتم دون سقاية نجد أن فيضان الدجلة والفرات ينتهي في نهاية حزيران . عندئذ يبلغ الحر أشده والسقاية تصبح ضرورية ولا تتم الزراعة بدونها . السقاية تحتم حفر الاقنية وجر المياه . وكلاهما يتطلبان وجود جماعات بشرية منظمة في ظل سلطة ادارية موحدة ، وهذا ما سبب قيام الدويلات الاولى في بلاد ما بين الدجلة والفرات . لكن الاقنية تتهدد بالخراب بعد كل طوفان كبير ولا اقول بعد كل فيضان . اذن الفرات عامل أساسي من عوامل الاستقرار البشري مثلما هو عامل من عوامل اللا استقرار ، فهو يسير على هواه ويتحكم بمصائر البشر والامصار .

يعج حوض الفرات بين جرابلس والبوكمال بالتلال الاثرية ومدن الاطلال ، الكثير منها بعيد عن مجرى الفرات الحالي والقليل منها ما يزال على احدى ضفتيه ، البعيدة منها واقعة في الزور اللحقي والقريبة منها رابضة فوق خانوقة او على هضبة صخرية صلدة .

نستفيد من النصوص المسمارية المسجلة في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد ان ماري (تل الحريري) كانت على شاطىء الفرات ، لكن الفرات الان بعيد عن ماري لمسافة بضع كيلو مترات ، وان توتول (لعلها في تل البيعة) ، تقع عند مصب البليخ في الفرات ، لكن تل البيعة يبتعد الان عدة كيلو مترات عن البليخ وعن الفرات كذلك . ونستفيد من المصادر نفسها أن ايمار (مسكنة / بالس) كانت ميناء على الفرات ، لكن مسكنة كانت حتى تشكل بحيرة الاسد تبعد حوالي اربع كيلو مترات عن الفرات . اما دورا اوروبوس وحلبية فظلتا في مكانيهما لان الاولى واقعة على هضبة صخرية صلدة والثانية على خانوقة صامدة .

ظل الفرات يتحدى البشر ويجرهم الى حيث هو يختار ، كان البشر في قديم الزمان يتحايلون على الفرات لكنهم لم يتحدوه أبدا حتى كان بناء سد الفرات ، وهو لعمري أعظم مأثرة للبلاد في هذا الزمان ، حيث انقلبت الاية ، فبعد أن كان الفرات يتحكم بمصائر البشر والامصار أصبح الانسان يسيطر على مسار الفرات ويصده عن الفيضان أو الطوفان .

لا يقتصر دور الفرات على تمكين الزراعة وترسيخ أسباب الاستقرار بل كان عصبا من أعصاب المواصلات ، فتشجعت التجارة بين البلدان وارتفع بنيان المجتمع في المدن والامصار بطبقة جديدة من التجار وتحقق موئل آخر بعد الزراعة لزيادة الرفاهية والثراء .

لا يصلح الفرات للملاحة مثل النيل وذلك لاختلاف عمقه من مكان لاخر أو لضحالته في كثير من المواقع (مخاضات) ، لكن البشر تغلبوا على هذه الصعوبة بابتكار سفن وقوارب مسطحة القاعدة ، مستديرة او مستقيمة الجوانب . لكن تلك السفن لم تعرف الاشرعة ، فشدة اندفاع التيار أقوى من حركة الرياح . ومع هذا تحدى البشر في قديم الزمان جبروت الفرات واستعاضوا عن الشراع بسحب السفينة بالحبال (٣) .

تحدثنا النصوص المسمارية المكتشفة في اور

ان العديد من العمال خلال أيام كثيرة يقومون بسحب السفينة الملأى بالحبوب من نقطة الى أخرى ثم يفرغونها ويعيدون تعبئتها وسحبها . ونستفيد من النصوص المسمارية الاكادية ان النساء يكلفن بجر السفن وتعبئتها وتفريغها . وقد جاء في النصوص السومرية أن اربعين امرأة من الارقاء قمن خلال ستة أيام بجر سفينة محملة بالتمور ، وأن اربعا وثمانين امرأة اخرى قمن خلال عشرة أيام بتعبئة محصول حقل وجر وتفريغ سفينة . وللذهاب من لاجاش الى نيبور مثلا والمسافة بينهما ١٤٠ كم يقوم ١٦ أو ١٧ عاملا بجر سفينة حمولتها ١٨ طنا خلال ١٥ يوما (ظل هذا المنظر مألوفا من دير الزور مثلا حتى حوالي ٢٠ سنة خلت ، حيث كان يجري سحب السفن المسطحة بالحبال وهي معبأة بالحطب أو المحاصيل الزراعية) .

كانت الطرق المائية مليئة بكل أنواع السفن المعروفة حتى القفة ، التي ادهشت هيرودوت وتركت لنا اللغة الاكادية أسماءها المختلفة بحسب مظهرها واستعمالها ، وما اذا كانت تصعد النهر أو تنحدر مع التيار ، أو اذا كانت تستعمل للعبور أو للترفيه ، أو للانقاذ . وكانت مدينة توتول (ربما في تل البيعة قرب الرقة) تشتهر في الالف الثاني قبل الميلاد بصناعة السفن . وتجدر الاشارة ان كلمة ملاح بالعربية هي نفسها دون تحريف في الاكادية والبابلية .

كانت التجارة النهرية سببا في ازدهار مدن وممالك على الفرات ، فالسفن المعبأة بمختلف أنواع البضائع كانت تخضع لدفع الرسوم التي تشكل موردا هاما من موارد الدولة وان أي تهرب منها يؤدي الى مصادرة البضائع وحجز السفينة ، واذا فرضت عقوبات بحق سفينة ماء فان تدابير مقابلة ستتخذ في موطنها الاصلي . فقد كتب ملك كركميش (جرابلس حاليا) في الالف الثاني قبل الميلاد الى ملك ماري (تل الحريري) ما يلي : « ها انت ترى ان مركز توتول (ربما تل البيعة قرب الرقة) على البليخ قد حجز ٣٠ خروفا و ٥٠ جرة نبيذ ، حتى انه حجز زوجة صاحب السفينة ... اكتب اذن الى توتول لفك حجزها ، وان في مملكتي قام الموظفون لدى سماعهم الخبر بحجز عدد كبير من البضائع المرسلة الى ماري واخرى ذاهبة الى توتول » .

مثلما ان الفرات عامل عمار وفي نفسه عامل خراب لمواطن الاستيطان البشري في مجال الزراعة كذلك هو في مجال التجارة . فالنصوص المسمارية المكتشفة حديثا في ايبلا / تل مرديخ (٤) جنوبي حلب تسلط الاضواء على هذه الناحية .

كان ملوك جنوبي الرافدين في الالف الثالث قبل الميلاد معولين على المواد الخام الثمينة من الخشب والذهب والفضة والبضائع النفيسة الموجودة في بلاد الشام (جبال الامانوس ، جبال لبنان ، منطقة ديار بكر ، منطقة نهر مراد سو الخ .) . تقع ايبلا على مقربة من تلك المصادر الثمينة وكانت تستخرجها أو تجلبها من هناك وتعمل على تصديرها الى ملوك الرافدين بواسطة القوافل البرية حتى ميناء ايمار (مسكنة / بالس) على الفرات ومن هناك بواسطة السفن على الفرات نزولا . وحققت ايبلا بذلك أرباحا طائلة وتراكمت لديها ثروات هائلة وتمكنت من توسيع رقعة نفوذها .

ولما كان أمر السيطرة على طريق الفرات ضمانا لاستمرار تلك الثروة وذلك النفوذ عقدت ايبلا الاحلاف مع مدن على الفرات وعلى البليخ وعلى الخابور . ولما كانت ماري مدينة ذات شأن خطير على الفرات الاوسط ولا تكون التجارة آمنة بدونها اضطرت ايبلا الى احتلال ماري عسكريا .

ضاق ملوك أكاد ذرعا بتحكم ايبلا بالمصادر الطبيعية الثمينة وبطرق المواصلات النهرية وفي مقدمتها الفرات الاوسط والاعلى .

وهكذا يقوم صارغون الاول (٢٣٥٠ ق.م بغزو ايبلا واجبارها على دفع الجزية وبالتالي تحقيق امتيازات اقتصادية للدولة الاكادية . لكن حفيده نارام — سن (٢٢٥٠ ق.م) لم يرض بمجرد الامتيازات بل اراد الاستئثار بالثروة والنفوذ اللذين لايبلا . وهكذا قاد حملة واسعة

قضى فيها على ايبلا قضاء مبرما بحيث تباهى في كتاباته بانه اول من قضى على ايبلا ولم يسبقه أحد في هذا العمل منذ الخليقة .

كذلك نستفيد من النصوص المسمارية المكتشفة في ماري (تل الحريري) ، ان تمادي ملوك ماري في فرض الرسوم على السفن التجارية ومضايقتها قد دفع بملك بابل حمورابي (حوالي ١٧٥٠ ق.م) لارسال حملة عسكرية لتدمير ماري تدميرا نهائيا .

لعب الفرات دورا عسكريا في التاريخ وسبب نشوء الثغور والربط العسكرية المستقرة . وهذا أيضا نوع من انواع الاستقرار البشري ، فالتجار يلحقون العسكر ويتكاثر حولهم طلاب الرزق من وراء تقديم الخدمات . وهكذا تتحول الثغور أو المحطات العسكرية الى مدن عامرة مثل دورا أوربوس وحلبية وزلبية .

كان للفرات دور هام في نقل الجيوش فقد كتب ملك آشور (ايشمي - دجن) الى أخيه والى ملك ماري ليرسلا له جيشا يساعده على قمع تمرد في دولته كما طلب ارسال سفن مشحونة نصفها بالحبوب والدقيق والبيرة ليضلل الجواسيس . أما سنحريب فقد نقل جيوشه بمحض ارادته عن طريق السفن وفضل هو نفسه السير على الارض الصلبة وفي هذا الصدد يقول سنحريب في كتاباته : «أرسلت جنودي الشجعان الى المعركة عن طريق السفن بينما سرت انا بالقرب منهم برا » .

لم يتحول الفرات الى حدود فاصلة الا في ظل الاحتلال الاجنبي فعندما فتح الاسكندر المقدوني الشرق عبر الفرات من موقع طبسق (ثابساكوس باليونانية ، ولعله في موقع دبسي فرج - حاليا على شاطىء بحيرة الاسد) وأدرك اهمية الفرات الاقتصادية والتجارية والعسكرية، فانشا هو وحلفاءه دورا اوربوس قرب ماري ونيكوفوريون (الرقة القديمة) ، وفي ظلال الاحتلال الروماني اشتد نزاعهم مع البارثيين الذين احتلوا بلاد ما بين النهرين واصبح الفرات خط مواجهة خطير الشأن بين دولتي الاحتلال فازداد عدد الثغور والحصون فنشأت قرقيسيا (بلدة البصيرة عند مصب الخابور في الفرات) ثم اسست زنوبيا حلبية وزلبية ، واقامت سورا (قرية الحمام قرب الرقة) ، ولم يتبدل الحال في ظل الاحتلال البيزنطي فالنزاع استمر مع الساسانيين ورثة البارثيين وقام جوستنيان بتحسين الثغور وتوسيعها وتحول عدد منها الى مدن صغيرة مثل حلبية وزلبية والرصافة .

عاد السلام الى الفرات بعد تحرير المسلمين البلاد من الاحتلال الاجنبي وفقدت مدن الثغور اليونانية والرومانية والبيزنطية وظيفتها ثم هجرت لتنشأ في ظل الاسلام مدن جديدة مثل رحبة مالك بن طوق (الميادين الحالية) والرافقة (الرقة) . لكن الدور العسكري للفرات عاد مع ظهور الخطر المغولي القادم من الشرق ، ومع هذا لم يتحول الى حدود فاصلة بل الى خط دفاع عسكري ، فنشأت قلعة الرحبة وبجوارها بلدة الرحبة على يد أسد الدين شيركوه وقلعة جعبر (حاليا على شاطىء بحيرة الاسد) وقلعة النخيلة (قرب السبخة) وقلعة نجم قرب منبج .

نستخلص من عرضنا أن مواطن الاستقرار من بلدان وحواضر وامصار قد ارتبطت بوجود الفرات اما لتمكين الناس من ممارسة الزراعة أو لتوفيره فرص التجارة أو لتأمينه المناعة العسكرية . وقد يكون الاعتماد على تلك العوامل منفردا أو مجتمعا .

لكن ماذا كان مصير مواطن الاستقرار البشري عندما ابتعد الفرات عنها او عندما تحول طريق التجارة النهرية الى مكان آخر او عندما انتفت المجابهات والحروب .

أسلفت ان الفرات يعج بالتلال الاثرية ومدن الاطلال وجميعها كانت حواضر وامصاراً عامرة ثم اندثرت . لماذا ؟

حاول المستشرقون الغربيون تفسير الاسباب

وشرح العلل بالصراع العرقي بين الآرية والسامية او بالنزاع التقليدي بين اهل الوبر واهل المدر ، او بالنزاع الديني أو الطائفي او بالدوافع الفردية للزعماء والحكام وما شاكل ذلك لكن القليل القليل فقط يلتفت الى العوامل الجغرافية والاقتصادية والستراتيجية العسكرية .

وفيما يلي نستعرض المواقع الاثرية والاوابد التاريخية المنتشرة على جانبي الفرات بدءا من البوكمال على الحدود السورية العراقية وانتهاءا بجرابلس على الحدود السورية التركية أي سنسير بعكس اتجاه الفرات ، صعودا لا نزولا .

١ ـ ماري (تل الحريري) :

هو اول موقع أثري يصادفنا بعد البوكمال بـ ١٢ كم . ورد ذكر ماري في العديد من النصوص المسمارية المكتشفة في مواقع أثرية في العراق ، وحاول العلماء تحديد مكانها . أجمعوا على أنها لا بد أن تكون على الفرات لكنهم اختلفوا في تعيين التل الاثري الذي يمكن أن تكون مغيبة في باطنه . وظل الامر على هذه الحال حتى العام ١٩٣٣ عندما عثر أحد المواطنين في تل الحريري على تمثال حجري ، وسرعان ما استقدمت سلطات الانتداب الافرنسي آنذاك بعثة أثرية برئاسة المرحوم اندريه بارو من متحف اللوفر لمباشرة التنقيب الاثري المنهجي في هذا الموقع الهام .

تأكد ان هذا التل يغيب مدينة ماري المعروفة في التاريخ عندما تم الكشف عن تمثال رجل نقش عليه بالمسمارية اسم (لمجي ـ ملك ماري) . في عام ١٩٨٣ سيحتفل بذكرى مرور خمسين عاما على اعمال التنقيب في ماري (١٩٣٣ ـ ١٩٨٣) ، هذا الموقع الذي ما يزال التنقيب جاريا فيه حتى الآن ولم يتوقف العمل فيه منذ خمسين عاما الا خلال سنوات الحرب العالمية الثانية .

تبلغ ابعاد التل ١٠٠٠ × ٦٠٠ م ولقد كشفت التنقيبات حتى الآن عن الكثير من محتوياته وتبين ان عمر المدينة يتراوح بين ٣٠٠٠ ق.م وحوالي ١٧٥٠ ق.م . وتتمثل ابرز المعالم المكتشفة في معبدي عشتار ونيني زازا ومعبد دجن والزيقورة والقصر الملكي الكبير الذي يحتوي على حوالي ٣٠٠ غرفة . وتجدر الاشارة أن البناء تعاقب ثلاثة مرات في هذا القصر وفي كل مرة كانت الاساسات الجديدة تقوم فوق انقاض الاساسات الاقدم عهدا ويعتبر هذا القصر من اكبر القصور في تاريخ الشرق القديم .

من بين أقدم ملوك ماري في الالف الثالث قبل الميلاد نذكر الملك ايبلول ايل الذي نقش اسمه على أحد التماثيل النذرية في معبد نيني زازا ثم جاءت النصوص المكتشفة مؤخرا في ايبلا لتلقي مزيدا من الضوء على هذا الملك ، وأصبحنا نعرف أن القائد العسكري المدعو (انا ـ دجن) قاد حملة عسكرية ضد ماري وأطاح بملكها ايبلول ـ ايل ونصب نفسه ملكا على ماري بدلا منه .

بالرغم من أن البعثة قد عثرت على السجلات الملكية المؤلفة من حوالي ٢٥ ألفا من اللوائح المسمارية الا أن تلك الوثائق الكتابية لا تغطي الا الالف الثاني قبل الميلاد . لكن الآن بدأ يتزايد عدد اللوائح المسمارية المكتشفة في السنوات الاخيرة والمسطرة في الالف الثالث قبل الميلاد كما أن لوائح ايبلا تلقي الكثير من الضوء على أحوال ماري في الالف الثالث قبل الميلاد ونفهم من بين السطور أن مدينة ماري كانت مفتاح السيطرة على التجارة النهرية للفرات ولعل هذا هو سبب احتلال ايبلا لماري في الالف الثالث قبل الميلاد وسبب دمار ماري النهائي على يد حمورابي ملك بابل في الالف الثاني قبل الميلاد . يضاف الى ذلك ابتعاد نهر الفرات عن المدينة التي كانت ذات يوم لؤلؤة الفرات .

٢ ـ موقع دورا اوربوس :

نواجه هذا الموقع الاثري بعد حوالي عشرين كيلو مترا من ماري . كان يعرف باسم صالحية الفرات الى ان تم اكتشافه بطريق الصدفة في ١٩٢٠ ثم بوشر فيه التنقيب الاثري من ١٩٢٨

الى ١٩٣٧ على يد بعثة افرنسية ثم اخرى فرنسية ـ امريكية مشتركة . وبفضل النصوص الكتابية المكتشفة فيه أصبحنا نعرف أن هذا الموقع هو مدينة دورا أوروبوس القديمة . ويتألف هذا الاسم من كلمة محلية (دور) وهي كلمة دارجة في اللغات الاكادية والبابلية وغيرها وتعني (الموطن ـ الحصن ـ المربع) لكن كلمة (دور) ليست الا اشتقاقا من (دار) و (ديار) بالعربية وظلت هذه التسمية مستعملة في الاماكن الجغرافية في العهود العربية الاسلامية مثل (ديار بكر) و (ديار مضر) . أما الكلمة الثانية (أوروبوس) فهي يونانية الاصل (ومنها اشتق اسم أوربا) . وتشير هذه التسمية أن الموقع كان مستقرا بشريا في العصور القديمة ويحمل اسم (دور) ثم جاء الاحتلال اليوناني للشرق في أعقاب فتوحات الاسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد ليضاف اليه اسم (أوروبوس) .

تقع المدينة على حافة وادي الزور (أو وادي الفرات) على ارتفاع حوالي ٥٠ مترا وتبلغ مساحتها حوالي ١٧ هكتارا . تحيط الاودية العميقة بجهاتها الثلاث أما الجانب الغربي المطل على بادية الشام فهو محصن بسور دفاعي . وللمدينة ثلاثة ابواب أهمها باب تدمر الواقع في السور الغربي آنف الذكر .

اسس المدينة الحالية خليفة الاسكندر المقدوني سلوقس نيكاتور (٣٢٠ ـ ٢٨٠ ق.م) وخطت حسب المبدأ اليوناني الروماني في تخطيط المدن اي على هيئة رقعة الشطرنج الذي يتقاطع فيه الشوارع الشمالية الجنوبية مع الشوارع الشرقية الغربية وقوام محاورها شارع رئيسي شمالي جنوبي طول ٦٥٠ م يتعامد ويتقاطع مع شارع شرقي غربي بطول ٣٧٣ م .

تأسست المدينة لاغراض ستراتيجية عسكرية ثم اكتسبت اهمية تجارية ويتبدى ذلك في القلعة المطلقة على نهر الفرات والتي يفصلها واد عميق عن بقية اجزاء المدينة وفي السور وتحصيناته المتينة . وتتجلى اهميتها التجارية وتعايش الجاليات المختلفة من جنسيات واديان متنوعة في تعدد المعابد المتناقضة ـ معابد يونانية رومانية وثنية مثل معبد زويس وارتميس واتارغاتس ومعابد وثنية محلية مثل معبد يرحبول ومعبد بعل شمين التدمريين الى جانب معابد توحيدية مثل المعمودية المسيحية والكنيس اليهودي .

كانت المدينة مسرحا للنزاع بين اليونان والرومان من جهة والبارثيين والساسانيين من جهة ثانية . فعاشت سنوات هدوء واستقرار وازدهار ومرت عليها فترات دمار على يد الطبيعة (زلزال ١٦٠ ميلادية) وعلى يد البشر (احتلال البارثيين لها في النصف الثاني للقرن الثاني قبل الميلاد . ثم سقوطها ودمارها النهائي على يد الساسانيين في ٢٥٦ ميلادية) ، وقال عنها الامبراطور الروماني جوليانوس عندما مر بها في عام ٣٦٣ ميلادية في طريقه الى عاصمة الساسانيين طيسفون (أطلال مدائن كسرى قرب بغداد حاليا) : « بقايا قديمة كانت في الماضي مدينة عظيمة » .

عاش أهلها على الحرب والتجارة وعندما تعطلت كلتاهما انتفى وجودها وهجرها من بقي فيها سعيا وراء الرزق في مكان آخر . الفرات لم يبتعد عنها لكن أهلها لم يعتمدوا على الزراعة لكسب معاشهم على ما يبدو أو أن الزراعة لم تكن تدر عليهم الارباح الطائلة مثل التجارة .

ما يزال الموقع مهجورا حتى وقتنا هذا ولا أنيس بها اليوم ولو بصفة حارس للآثار .

٣ ـ تل عشارة (ترقا) :

بعد دورا أوروبوس بحوالي ١٥ كم نواجه موقعا أثريا يعرف باسم تل عشارة وتقوم في معظم اجزائه قرية العشارة الحديثة . ما يزال هذا التل على شاطىء الفرات الحالي ، فلم يبعد النهر عنه بل تعدى على التل وجرف جزءا هاما منه . اجرى علماء آثار فرنسيون في العشرينات من هذا القرن اسبارا اختبارية في هذا التل وعثروا على عدد من اللوائح الكتابية المسمارية وبفضلها اصبحنا نعرف ان مدينة (ترقا) التي

ورد ذكرها في نصوص ماري وغيرها مغيبة في هذا التل .

باشرت منذ ١٩٧٧ بعثة اثرية من جامعة كاليفورنيا لوس انجلوس وبرئاسة الاستاذ جورجيو بوتشيلاتي أعمال التنقيب المنهجي في هذا التل وكشفت حتى الآن عن معالم سور المدينة الضخم (سماكته ٢٠ م) . وهو يعود الى الالف الثالث والالف الثاني قبل الميلاد . فضلا عن معالم معبد وعن أجزاء من مبان سكنية كما تم العثور على مزيد من اللوائح الكتابية المسمارية .

بعد دمار ماري في القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد قامت في ترقا (تل العشارة) مملكة قوية على يد الخانيين وعرفت مملكتهم باسم مملكة خانا . وهم جزء من الشعوب الامورية وكانوا تحت سيطرة ملوك ماري من قبل . وكان من أشهر ملوك ترقا هو الملك كاشتيلياش . ولقد ظلت ترقا تلعب دورا هاما في تاريخ المنطقة حتى ١٥٠٠ ق.م ثم تنقطع أخبارها لكن الدلائل الاثرية (فخار) تشير الى عودة الاستيطان البشري اليها بعد حوالي ألفي سنة وذلك في العهد الايوبي . لكننا لا نعرف ماذا كان اسم المدينة خلال هذا العهد .

٤ ــ رحبة مالك بن طوق وقلعة الرحبة :

نتابع السير لنصل بعد ١٥ كم من تل العشارة الى بلدة الميادين التي نشأت في أواخر القرن التاسع عشر فوق انقاض مدينة رحبة مالك بن طوق الثعلبي . اما قلعة الرحبة فانها ما تزال قائمة لكنها تبعد حوالي ٤ كم الى الغرب من الميادين .

اسس المدينة الواقعة على ضفة الفرات مالك ابن طوق الثعلبي في ايام الرشيد او في ايام المأمون . وفيما بعد دانت للحمدانيين واحتلها القرامطة ثم دانت للسلاجقة (طغرل بك وتاج الدولة تتش) واقطعها نور الدين زنكي لأسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الذي شيد قلعة الرحبة . سيطر هولاكو عليها في ١٢٥٨ ثم استعادها ابن الظاهر بيبرس وفي العام ٧١٢ هجرية غزاها التتر بقيادة خربندا .

لم يبق من مدينة رحبة مالك بن طوق شيء ظاهرا فوق سطح الارض بل اندثرت معالم المدينة كليا تحت بلدة الميادين الحديثة ، لكن في السنوات (١٩٧٦ ــ ١٩٧٩) ، قامت بعثة اثرية سورية ــ فرنسية مشتركة باجراء بعض الاسبار الاختبارية في اجزاء من البلدة واكدت وجود مدينة تعاقب السكن فيها من العهد العباسي حتى العهد الايوبي ثم توقف السكن وتظهر آثار الدمار والحريق واضحة . ويبدو ان بلدة جديدة قامت عوضا عنها في أسفل قلعة الرحبة التي بناها أسد الدين شيركوه .

تقع القلعة على حافة وادي الفرات وتقوم فوق هضبة مرتفعة ومنعزلة بواد عميق يصل عرضه الى حوالي ٢٠ م .

القلعة محاطة بسور مؤلف من خمسة اضلاع أطولها الضلع الجنوبي المطل على البادية (٨٥م) ويقع مدخلها الرئيسي في الضلع الشمالي الغربي . يلي هذا السور سور آخر مشيد بالحجارة الكبيرة ومؤلف أيضا من خمسة اضلاع أطولها الضلع الغربي الذي يبلغ طوله ٥٠ م . ويقوم في وسط الاسوار حصن شيد في القرن السابع الهجري . تتألف القلعة في الداخل من ثلاثة طوابق سفلية الاول عبارة عن قاعات وغرف ومستودعات والثاني أصغر من الاول والثالث عبارة عن صالة كبيرة لعلها كانت مستودعا رئيسيا .

تتضارب اقوال الجغرافيين والمؤرخين العرب حول موقع مدينة رحبة مالك بن طوق فابن حوقل يضعها على الضفة اليسرى من الفرات (جانب الجزيرة) والمقدسي يضعها على الجانب الايمن اي جانب الشامية . ترى هل غير الفرات مجراه وابتعد عنها مرة ثم عاد اليها من الجانب الآخر . لقد ابانت تنقيبات البعثة الاثرية السورية الفرنسية المشتركة ان طبقة من الطمي

النهري تزيد سماكته عن المتر تفصل بين البقايا السكنية العباسية في الاسفل والبقايا السكنية التي تعود الى القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

٥ ـ حلبية وزلبية :

بعد مغادرة الميادين والمرور بدير الزور نتابع السير لنصل بعد ٥٠ كم من دير الزور الى اطلال مدينة اثرية تعرف باسم حلبية وزلبية .

ينتهي جبل البشري بسهل بازلتي وهذا السهل يشكل هضبة تسيطر على وادي الفرات ويصل ارتفاعها الى ٥٠ مترا . يصطدم الفرات بهذا الحاجز ولكنه يجتازه باتباع سفح الهضبة ويحفر مجراه في البازلت فيوسعه ويزيد عمقه ، لذلك فان الفرات لا يمكنه وقد خنقته هذه الوديان أن يجري على هواه . ومن هنا اتى اسم هذا الموقع وهو الخانوقة .

والاستيلاء التام على هذا الممر الذي يسهل تحصينه كان معناه ليس فقط السيطرة على التجارة النهرية وتجارة القوافل في الوادي وانما السيطرة على أحد الاماكن النادرة التي يمكن فيها عبور الفرات في الصيف (مخاضة) .

ينسب المؤرخون والجغرافيون العرب اطلال المدينة في هذا المكان الى الزباء وهم ايضا يطلقون عليه اسم الخانوقة . ويحاول المستشرقون أن يروا في هذا المكان عدداً من المدن المختلفة التي ورد ذكرها في المصادر المسمارية (الآشورية) والكلاسيكية والبيزنطية .

تتألف الاطلال الحالية من سور مشيد بالحجارة الحوارية وهو يأخذ شكلا مثلثا ينطلق راسه من قمة عالية وينحدر ضلعاه الجانبيان نحو الفرات اما الضلع الثالث فهو بجانب الفرات . وتظهر داخل هذا السور اطلال مبان عامة وقلعة . وهناك حي خارجي يمتد بين السور وبين سور آخر يقع على بعد ٤٠٠ م .

قامت بعثة اثرية افرنسية برئاسة الاستاذ لوفري في ١٩٤٤ و ١٩٤٥ باجراء تحريات اثرية وكشفت عن معالم كنائس وحمام ومنازل كما ابانت معالم مخطط المدينة وخاصة الشارع الرئيسي الذي تكتنفه الاعمدة من الجانبين .

لكن التنقيبات لم تظهر دلائل على وجود جذور للاستيطان البشري في هذا الموقع سابقة للعهد التدمري . كما ان التأثير التدمري واضح في طراز العمارة وخاصة في ابراج المدافن ، كذلك فان وجود الكنائس يؤكد على ازدهار المدينة في العهد البيزنطي . ويذكر المؤرخ البيزنطي بروكوب أن الامبراطور البيزنطي جوستنيان حسن تحصينات المدينة .

تشير الدلائل الاثرية الحالية أن الاستيطان البشري توقف في هذا الموقع بعد العهد البيزنطي . ونفهم من الروايات التاريخية ومن طبيعة المكان أن المدينة ازدهرت لاسباب عسكرية وتجارية .

٦ ـ الرقة :

تقع آثار الرقة في مثلث التقاء نهر البليخ بنهر الفرات وتغطي المعالم الاثرية التي كانت ظاهرة في الصور الجوية قبل توسع مدينة الرقة الحديثة . مساحة حوالي ٥٠ كم٢ .

تتألف المعالم الاثرية في هذه المنطقة من تل أثري كبير يعرف باسم تل البيعة وتنتشر الى الجنوب والشمال والغرب منه معالم مغيبة لمدينة الرقة السوداء التي ذكرها ياقوت ولعلها أصبحت الآن تحت قرية الرقة السمراء الحالية الواقعة الى الشرق من الرقة الحديثة ثم هناك الرقة البيضاء ولعلها اصبحت تحت قرية المشلب الحالية الى الشرق من الرقة الحديثة ثم تليها الرافقة التي ما تزال آثارها بارزة والمتمثلة في سور المدينة الضخم وباب بغداد والجامع الكبير . اما في الشمال من المواقع آنفة الذكر فتنتشر معالم قصور ومنازل واسعة كشفت تنقيبات المديرية العامة للآثار والمتاحف عن عدد

منها ولعلها كانت جزءا من امتداد المدينة في ايام الخليفة هارون الرشيد ومن جاء بعده .

آثار تل البيعة : بدأت التنقيبات الاثرية في هذا التل الضخم في عام ١٩٨٠ من قبل بعثة أثرية المانية . ويرجح معظم علماء الآثار ان تكون مدينة توتول القديمة مغيبة في باطن هذا التل ، فالنصوص المسمارية المكتشفة في ماري (تل الحريري) تصف توتول بانها مدينة واقعة عند مصب البليخ في الفرات وانها مدينة حصينة الاسوار ومهيبة البنيان . كما انها اشتهرت بصنع السفن النهرية فضلا عن كونها ميناءا هاما على الفرات . ولقد أسلفنا في الصفحات السابقة كيف لعبت دورا خطيرا في التجارة النهرية (رسالة ملك جرابلس – كركميش الى ملك ماري) .

يقع تل البيعة الى الغرب من نهر البليخ ولا يوجد أي تل آخر في هذا المثلث لكن هناك تل يعرف باسم تل زيدان ويقع الى الشرق من نهر البليخ الا ان الدراسة السطحية لاتشير الى وجود حضارة معاصرة لنصوص ماري التي تتحدث عن توتول بل يتوقف التسلسل الحضاري فيه عند الالف الرابع قبل الميلاد . بناء على ذلك فان الارجحية تميل لصالح تل البيعة فيما يتعلق بمدينة توتول القديمة . وبالفعل فقد دلت النتائج الاولى للتنقيبات الاثرية الالمانية الجارية الآن على وجود مدينة مطوقة بسور ضخم كما تم الكشف عن معالم أبنية هامة وآثار منقولة (أواني وادوات وتماثيل فخارية) تعود الى مطلع الالف الثاني قبل الميلاد ، أي معاصرة لنصوص ماري آنفة الذكر . وبانتظار العثور على لوحات مسمارية في هذا التل للبت بشكل قطعي في هوية توتول .

يبعد نهر البليخ عن تل البيعة حاليا حوالي كيلو مترين كما يبتعد الفرات عن التل نفسه اكثر من ثلاثة كيلو مترات . توقف السكن في تل البيعة في حوالي منتصف الالف الثاني قبل الميلاد . ترى هل ساهم ابتعاد النهرين عنه الى جانب عوامل اخرى (حروب ، غزو ، زلازل ، جفاف الخ) في هجر البشر له .

– آثار الرقة القديمة : نعلم ان مدينة كانت موجودة على الفرات وبالتحديد الى الجنوب والجنوب الغربي من تل البيعة ، فتحها المسلمون في ١٨ للهجرة وعرفتها كتب الرواة والمؤرخين العرب باسم الرقة ، ونعلم من المصادر الكلاسيكية ان الاسكندر الكبير المقدوني وخلفاؤه اسسوا مدينة في هذا الموقع وكانت تعرف باسم نيقوفوريوم ثم عرفت في عهد الاحتلال الروماني والبيزنطي باسم كالينيكوم وليونتوبوليس . لقد نبذ العرب المسلمون الاسماء الاجنبية وعربوا مواطن الاستيطان فورا فأطلقوا على المدينة اسم (الرقة) ، وهذه الكلمة مستمدة من طبيعة الموقع فالرقة هي مايتشقق من الطين اللحقي الذي يخلفه الفرات بعد انحساره في أعقاب كل فيضان .

تشير الدلائل الاثرية أن الرقة التي سبقت الفتح الاسلامي (نيقوفوريوم او كالينيكوم) كانت تقع الى الجنوب من تل البيعة ، حيث الآن قريتي الرقة السمراء والمشلب . اذن عاد السكن الى المنطقة في القرن الرابع قبل الميلاد (عهد الاسكندر) واستقر بين الضفتين الجديدتين لنهري البليخ والفرات اللذين ابتعدا عن تل البيعة في منتصف الالف الثاني قبل الميلاد .

أسس الامويون وبالتحديد الخليفة هشام ابن عبد الملك ضاحية ملاصقة للرقة القديمة وأسموها رقة واسط ، لكن آثار هذه الضاحية او المدينة الاسلامية الجديدة لم يبق منها أي أثر ولعلها اندثرت كليا عندما ابتعد الفرات مرة اخرى عن الرقة القديمة في وقت ما بعد القرن الثالث عشر الميلادي .

جاء العباسيون فيما بعد ، وبالتحديد زمن الخليفة ابي جعفر المنصور ليؤسسوا مدينة اسلامية جديدة مرافقة للرقة القديمة وتقع الى الغرب منها واسموها (الرافقة) ، وهي التي ماتزال آثار أسوارها وجامعها وبابها باقية حتى يومنا هذا .

تنضم الرافقة الى سلسلة المدن الجديدة التي خطها المسلمون منذ أيام الفتوح مثل الكوفة والبصرة والفسطاط وواسط وغيرها ليؤكدوا للملأ وللتاريخ ان العرب المسلمين هم بناة حضارة وليسوا ورثة حضارات .

يأخذ سور الرافقة شكل حدوة الفرس . وهذا الشكل مبتكر وفريد من نوعه في تاريخ تخطيط المدن . السور مزدوج ، على شاكلة سور المدينة المدورة في بغداد اي يتألف من سور امامي وسور رئيسي وبينهما فصيل بعرض حوالي ٢٠م ويمكننا ان نطلق عليه اسم شارع بين السورين .

السور مبني بألواح اللبن (الطين المجفف) ومصفح من الجانبين بألواح الآجر المشوي ، وهو قائم فوق قاعدة حجرية مؤلفة من مدماكين. يعزز السور أبراج نصف مستديرة . الضلع الجنوبي للسور مستقيم الامتداد،لانه كان محاذيا لنهر الفرات .

لم يبق من هذا السور الا حوالي نصفه كما انه فقد معظم وجهيه من الواح الآجر ولم يبق الا قلبه المتآكل من الواح اللبن ، كما فقد الكثير من ارتفاعه الذي يقدر بأنه كان على شاكلة سور مدينة بغداد اي حوالي ٢٠ مترا (اعلى نقطة باقية في سور الرافقة الآن لاتتجاوز العشرة أمتار) . اما سماكة السور الرئيسي الباقي فتبلغ ١٠ر٦م .

يقوم باب بغداد في الزاوية الجنوبية الشرقية من سور الرافقة ، وهو الوحيد الذي بقي من أبواب المدينة المتعددة . الباب مشيد بألواح الآجر المشوي ولم يبق منه الا النصف حيث يخترقه مدخل يعلوه قوس مدبب وواجهة البوابة مزينة بمحاريب وطاقات مجوفة ولقد جرى رصف الآجر بطريقة فنية للخروج بأشكال زخرفية هندسية . لكن لايوجد اجماع بين العلماء على تاريخ هذه البوابة الجميلة فمنهم من يقول أنها من عهد المنصور وآخرون ينسبونها الى عهد الرشيد ومنهم من يعيدها الى عصر متأخر .

لم يبق من آثار المدينة داخل هذ السور الا اطلال جامعها الكبير واطلال بناء آخر يعرف باسم (قصور البنات) .

يعود الجامع الى عهد الخليفة المنصور وفيه تجتمع خصائص المسجد الرافدي (الكوفي) والمسجد الشامي (الاموي) فالابراج نصف المستديرة في زواياه وعلى اضلاعه الخارجية الاربعة تذكرنا بطراز مساجد الكوفة وحرمه المؤلف من ثلاثة مجازات بوساطة صفين من الاعمدة يذكرنا بطراز الجامع الاموي بدمشق . جدد نور الدين زنكي (١١٥٩م) واجهة الحرم التي ماتزال قائمة حتى يومنا هذا ، ولعل المئذنة الاسطوانية في أحد جوانب الصحن تعود ايضا الى عهد نور الدين .

الجامع مبني على شاكلة السور أي من اللبن المجفف والآجر المشوى في الوجهين الجانبيين للجدران .

تقوم المديرية العامة للآثار والمتاحف بترميم الجامع والسور واعادتهما الى شكليهما الاصليين. أما أطلال قصور البنات فقد كانت مغيبة تحت الانقاض وتقوم بعثة من المديرية العامة للآثار والمتاحف منذ ١٩٧٧ بكشف معالم هذه الاطلال وترميمها وتبين حتى الآن ان قصور البنات عبارة عن منشأة معمارية ضخمة يشبه مخططها طراز المدارس والبيمارستانات المعروفة منذ عهد نور الدين الزنكي أي الباحة المركزية التي تطل على جهاتها الاربعة ايوانات تتعامد مع الباحة وتشكل معها محاور متصالبة .

قامت بعثة من المديرية العامة للآثار والمتاحف في الخمسينات بالكشف عن معالم ثلاثة قصور في منطقة التوسع العمراني للرقة في زمن الرشيد أي في شمال شرقي اسوار الرافقة .ومن المحتمل ان تعود تلك القصور الى زمن المعتصم وذلك لظهور اسم المعتصم على بقايا رسوم جصية ملونة كانت تزين جدران احد القصور الثلاثة.

لقد غمر التوسع السكاني الحديث للرقة كافة المناطق الأثرية للرقة القديمة قبل ان تمتد معاول التنقيب الاثري الى الكشف عن معالمها وبذلك فاتت الفرصة للحصول على مزيد من الشواهد المادية على مركز من مراكز الحضارة العربية الاسلامية .

ظلت الرقة والرافقة على شاطىء الفرات الايسر (جانب الجزيرة) حتى القرن الثالث عشر الميلادي ثم هجرت المدينة وتدمرت في أعقاب الغزو المغولي وانقطعت أخبارها عنا حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما عاد السكن اليها ليجد الناس أن الفرات قد ابتعد عن المدينة مترين .

٧ ـ هرقلة : نغادر الرقة باتجاه الغرب على جانب الجزيرة من الفرات لنواجه بعد حوالي ٨ كم أطلالا أثرية تعرف باسم (هرقلة): وهي عبارة عن بنيان مربع بطول حوالي المئة متر ومعزز بأبراج مربعة في زواياه ويخترق منتصف كل ضلع من أضلاعه الاربعة ايوان ضخم يطل نحو الخارج . يحيط بهذا البنيان سور مستدير معزز بأبراج مربعة وتتقدمه أربع بوابات في الجهات الرئيسية الاربعة وكل بوابة تقابل أحد ايوانات البنيان المذكور آنفا . يبلغ قطر السور حوالي ٥٠٠ م ويبلغ بروز كل بوابة عن السور مقدار حوالي ٢٠ م. تأخذ كل بوابة في تصميمها الداخلي شكلا هندسيا مغايرا عن عن الاخرى ، فالبوابة الشمالية مستديرة والجنوبية مربعة والشرقية مثمنة والغربية مسدسة .

تقوم بعثة من المديرية العامة للآثار والمتاحف منذ ١٩٧٦ بالكشف عن معالم هذه الآبدة الضخمة والفريدة من نوعها وتبين ان البنيان المربع في وسط السور المستدير ليس الا قاعدة عالية (صرح) وان المنشأة لم يخلص بناؤها اي توقف البناء فيها فجأة ، ولعل بنيانا ما كان مرسوما لاقامته فوق تلك القاعدة .

يذكر ياقوت والطبري والمسعودي أن هارون الرشيد أمر ببناء هذا الحصن في أعقاب غزوه لمدينة هرقلة ببلاد الروم (حاليا في تركيا) وذلك في عام ١٩٠ للهجرة . لكن هارون غادر الرقة في ١٩٢ هجرية ثم توفي في بلاد فارس في العام ١٩٣ للهجرة ولعل هذا هو السبب في عدم اكتمال البناء .

آثار منطقة غمر السد

تعرضت معظم التلال الاثرية والاوابد التاريخية المنتشرة في حوض الفرات للغمر بمياه بحيرة سد الفرات على امتداد حوالي ٨٠ كم طولا و ٣ـ٨ كم عرضا بحيث توجب القيام بحملة انقاذ عاجلة قبل ان تتشكل البحيرة وكان ذلك بين ١٩٦٩ و ١٩٧٤ ولقد ساهمت في حملة الانقاذ هذه بعثات أثرية تابعة لمؤسسات علمية من مختلف الاقطار الاوروبية والامريكية . الى جانب بعثات المديرية العامة للآثار والمتاحف. ولقد اتاحت هذه الحملة المجال للتعرف على جملة من الحضارات المتعاقبة في تلك المنطقة من وادي الفرات دفعة واحدة . وفيما يلي نستعرض المواقع التي تم انقاذها او التنقيب فيها .

قلعة جعبر : كانت على الضفة اليسرى (جانب الجزيرة) من الفرات وهي الآن محاطة بمياه الضفة اليسرى لبحيرة الاسد ، تبعد حوالي ٥٠ كم عن الرقة وحوالي ١٥ كم عن جسم السد.

بنيت القلعة فوق كتلة صخرية مرتفعة ويلاحظ بين اطلالها سوران حولهما خندق وممر محفور في الصخر يلي بابها وبقايا أبراج ومباني رائعة الهندسة . كلها من الآجر المشوي وفي داخلها مئذنتها البالغة الارتفاع (٢٦ مترا) وهي اسطوانية الشكل قطرها (٤ر٥ م) بنيت فوق قاعدة مربعة وتنتهي في أعلاها بأربع نوافذ تحتها شريط من الكتابة النسخية تطوق المئذنة . والقلعة على شكل اهليلجي قطرها الكبير ٢٣٠ مترا وقطرها الصغير ١٦٠ م .

اول ما عرفناه من أخبارها ، حادث احتلالها

من قبل السلطان السلجوقي ملكشاه في العام ١٠٨٦ ميلادي وكان يحكمها الامير سابق الدين جعبر بن سابق القشيري الذي نسبت اليه القلعة ويبدو أن اسمها قبل ذلك كان (دوسر) .

احتلها نور الدين زنكي في ١١٦٨م واحتلها الصليبيون امراء الرها لفترة قصيرة في ١١٠٤م. وقد هجرت القلعة في فترة الغزو المغولي في عهد هولاكو (١٢٥٨ م) . ويبدو أن المماليك اعتنوا بالقلعة وجعلوها تابعة لولاية دمشق فرممها الامير تنكز نائب السلطنة في دمشق بناء على أمر من السلطان محمد بن قلاوون (١٣٤٠م) لكن القلعة تهدمت وهجرت مرة ثانية في أعقاب غزوة المغول الاخير على يد تيمورلنك في ١٤٠٠م) وكان من نتيجة ذلك أن انقطعت أخبارها .

يبدو ان معظم أجزاء القلعة القائمة حاليا تعود الى أيام المماليك ولم يبق من آثار العهود السابقة شيء يذكر . وتقوم المديرية العامة للآثار والمتاحف منذ ١٩٧٣ بترميم هذه الأبدة واعدادها كموقع سياحي وستخصص قاعاتها لاحتواء الآثار المكتشفة في منطقة حوض الفرات الاعلى .

تل فرى : بعد حوالي ١٥ كم من قلعة جعبر كان يقوم قبل نشوء بحيرة السد تل أثري يعرف باسم تل فرى وقامت بالتنقيب فيه قبل أن تغمره مياه البحيرة بعثة اثرية سورية أمريكية مشتركة وبعثة سورية ايطالية مشتركة . وكانت نتائج أعمال البعثة الثانية مثمرة حيث كشفت عن معالم معبدين وعن مبنى عام ، تعود جميعها الى منتصف الالف الثاني قبل الميلاد . اما نتائج أعمال البعثة الاولى فقد دلت على وجود مدينة في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد . كذلك تبين ان الاستيطان في هذا الموقع قد توقف في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد ثم عاد الاستيطان فيه مرة ثانية في القرن الثالث عشر (العهد الايوبي) بعد الميلاد . وبالرغم من العثور على لوائح مسمارية في هذا التل الا اننا لانعرف حتى الآن اسم المدينة القديم او حتى الوسيط .

١٠ – موقع أبي هريرة : قبالة تل فرى في الجانب الشامي (الايمن) من الفرات كان يقوم موقع أبي هريرة قبل أن تغمره مياه البحيرة .

يضم هذا الموقع مدافن بيزنطية محفورة في الصخر ومدفنين مربعين من العهود الاسلامية ومئذنة جامع اسطوانية الشكل (قطر ٣٫٥ م وارتفاع ١٥ م) تقوم فوق قاعدة مربعة وهي شبيهة بمئذنة قلعة جعبر ومئذنة جامع المنصور في الرقة ولقد تم نقل هذه المئذنة من مكانها ثم أعيد انشاؤها في مدينة الثورة عند سد الفرات . لكن أهمية هذ الموقع تكمن في الكشف عن مستوطنة ترقى في تاريخها الى الالف السادس قبل الميلاد (العصر الحجري الحديث) .

١١ – دبسي فرج : بعد ٢٠كم من أبي هريرة وعلى الجانب الشامي من الفرات أيضا كان يقوم موقع دبسي فرج قبل أن تغمره مياه البحيرة وقد قامت بالتنقيب فيه بعثة سورية وأخرى بريطانية وتم الكشف عن معالم مدينة محصنة بسور وأبراج مبنية بالحجارة المنحوتة فضلا عن كنائس مسيحية فرشت أرضياتها بالموزاييك . ويعود تاريخ هذه المدينة الى العهد البيزنطي ولعلها كانت استمراراً لمدينة تأسست في العهدين اليوناني والروماني كذلك وجدت ادلة على استمرار السكن في هذا الموقع في العهود الاسلامية الوسيطة . لكن المنقبين لم يعثروا على أدلة كتابية تعيننا على معرفة اسم هذه المدينة بشكل أكيد . ومع هذا فالموقع يحتل هضبة صخرية تطل على الفرات الذي ابتعد عنه انحو الشرق .

١٢ – مسكنة / بالس / ايمار :

بعد ١٥ كم من دبسي فرج كان يقوم على الجانب الشامي من الفرات موقع مسكنة القديمة قبل أن تغمره مياه البحيرة . وكان الفرات يبعد بضعة كيلومترات عنه . وفي هذ الموقع بقايا مدينة بالس الاسلامية التي وصف لنا ياقوت الحموي مكانها من الفرات في مطلع القرن الرابع عشر ميلادي بانها بلدة في الشام بين حلب والرقة وكانت

على ضفة الفرات الغربية فلم يزل الفرات يشرق عنها حتى صار بينهما في أيامنا هذه اربعة اميال.

اذن الفرات ابتعد عن بالس في القرن الرابع عشر ميلادي ولم يزل هكذا .

كانت المدينة قائمة قبل الاسلام واسمها وقتئذ (بارباليسوس) وبقايا اسوار المدينة وابراجها وجزء من مبانيها البيزنطية ماتزال قائمة الى جانب بقايا المدينة الاسلامية . فتح المدينة ابو عبيدة بن الجراح وعسكر فيها مسلمة بن عبد الملك وفتح فيها قناة تعرف بنهر مسلمة وتنازع عليها الحمدانيون والفاطميون وهددها الفرنج وحاصروها في العام ١١٢٢م ، وكانت موضع عناية آل زنكي ثم الايوبيين ثم لم نعد نسمع عنها شيئا بعد غزو المغول (١٢٥٩) .

قامت بعثة افرنسية بالتنقيب في هذا الموقع وكشفت عن معالم الجامع الرئيسي المجاور لمئذنة شامخة مثمنة الشكل ومبنية بالآجر ومشفوعة بكتابة تذكارية باسم الملك العادل بن ايوب اخي صلاح الدين . كما كشفت التنقيبات عن بعض الاحياء السكنية وعن معالم مبنى عام

تكهن معظم علماء الآثار الشرقية القديمة ان ميناء ايمار المذكور في نصوص ماري وغيرها في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد يقع في مسكنة القديمة ، وتشاء الصدف ان يتم العثور اثناء تنقيبات البعثة الافرنسية خارج اسوار مسكنة بالس على الواح مسمارية اكدت محتوياتها على وجود ميناء ايمار في هذا المكان فعلا ، وهكذا توسع التنقيب ليكشف عن معالم ميناء ايمار في الالف الثاني قبل الميلاد .

لعبت ايمار دورا خطيرا في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد ولقد ورد ذكرها مؤخرا في النصوص المسمارية المكتشفة في ايبلا . فقد كانت ميناء على الفرات فيها تفرغ البضائع المنقولة على نهر الفرات ومنها تفرغ وتحمل البضائع المنقولة على الدواب والقادمة من براري الشام باتجاه بلاد الرافدين .

عثر المنقبون في ايمار على عدد كبير من الرقم المسمارية وفي أحدها يرد ذكر مدينة تدمر باسمها الحالي الذي لم يتغير حتى يومنا هذا . ويبدو ان تدمر كانت على علاقة وثيقة مع ايمار . لكن المنقبين لم يعثروا على بقايا مدينة ايمار في الالف الثالث قبل الميلاد .

ترى هل ابتعد الفرات عن المدينة في ذلك الزمان ثم انتقل الناس في الالف الثاني الى موقع جديد على ضفة النهر (لحقوا بالفرات) حيث كشف المنقبون الآن عن بقايا المدينة الجديدة .

١٣ – تل المريبط : قبالة مسكنة/بالس على جانب الجزيرة من الفرات كان يقوم على شط الفرات مباشرة تل يعرف باسم تل المريبط . قامت بالتنقيب الاثري فيه قبل ان تغمره مياه البحيرة بعثة امريكية ثم بعثة افرنسية ، ولقد أحدثت نتائج التنقيب في هذا الموقع ضجة في الاوساط العلمية العالمية . فقد تم الكشف عن اقدم مواطن الاستيطان البشري في القطر ويتمثل ذلك في مستوطنة من الالف التاسع قبل الميلاد واستمر السكن فيها حتى نهاية الالف السابع قبل الميلاد ثم توقف السكن فيها منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا .

يطلق على الاستيطان البشري في الالفين التاسع والثامن قبل الميلاد اسم العصر النطوفي ولم يكن هذا العصر معروفا الا في فلسطين (اريحا وغيرها) وفي دلتا النيل (حلوان) ولم يكن احد يتوقع العثور على مواطن نطوفية في مكان آخر .

ابانت الادلة الاثرية جوانب في غاية الاهمية نلخصها في النقاط التالية :

- كان انسان المريبط يعيش على الاسماك والقواقع النهرية .
- عرف انسان المريبط بواكير الزراعة (الحنطة البرية والشعير البري) .
- عرف انسان المريبط بواكير العمارة (البيوت المستديرة) .
- العثور في المريبط على اقدم الشواهد على عبادة الاجداد (دفن جماجم الاموات في ارضية البيوت) .
- العثور في المويبط على اقدم الشواهد على عبادة الامهات (تماثيل من الطين للربة الام - امراة عارية تلتف يداها حول ثدييها) .
- العثور في المريبط على اقدم الشواهد على عبادة الحيوانات الاليفة (تماثيل طينية للثور والحمار) .

لكن لماذا هجر الانسان هذا الموقع الذي كان يوفر مختلف أسباب العيش (الزراعة . صيد الحيوانات ، صيد السمك) في نهاية الالف السابع قبل الميلاد . الغريب ان الموقع ما يزال على شاطىء الفرات ، وهل يعقل أن ظل الفرات على حاله منذ ذلك الزمان ، علما أن الفرات قد هجر الكثير من مواطن الاستقرار كما اسلفنا . ليس من المستبعد في نظري أن ابتعد الفرات عن الموقع ثم عاد اليه بعد زمان .

١٤ - تل السلنكحية :

ننتقل الى الجانب الشامي من الفرات ونصعد بضعة كيلو مترات حيث كان يقوم تل السلنكحية قبل أن تغمره مياه البحيرة . نقبت في هذا المكان بعثة اثرية هولندية واستطاعت ان تكشف عن معالم مدينة ازدهرت على شاطىء الفرات الايمن (الجانب الشامي) فترة (٥٠٠) عام اي بين ٢٤٠٠ و ١٩٠٠ قبل الميلاد ، كانت المدينة محصنة باسوار وتعج بالمساكن والدور العامة والمعابد . كانت معاصرة للاكاديين ولسلالة اور الثالثة في الرافدين وشهدت نشوء وصعود الاموريين . لم يعثر المنقبون فيها على شواهد كتابية تعيننا على معرفة اسم المدينة الفعلي في ذلك الزمان . آثار الدمار ظاهرة لكنا لا نعرف على وجه الدقة اسباب الخراب . ومنذ حوالي ١٩٠٠ قبل الميلاد حتى يومنا هذا . اي منذ اربعة آلاف سنة من الآن لم يعد الاستيطان الى هذا المكان . لكن الفرات ظل ملازما له في ايامنا ومع هذا لا نعرف اذا كان الفرات قد هجره في يوم من الايام ثم عاد اليه بعد أوان .

١٥ - موقع حبوبة - قناص :

نتابع صعودنا الفرات لبضعة كيلو مترات على الجانب الشامي منه حيث كان يقع تل حبوبة وتل قناص قبل أن تغمرهما مياه سد الفرات . قامت بالتنقيب الاثري في هذين الموقعين المتلاصقين بعثة بلجيكية (تل قناص) واخرى المانية (تل حبوبة) ، وخلال اعمال التنقيب تبين ان الموقعين يتمم أحدهما الآخر ويشكلان مدينة كانت عامرة في غابر الزمان ، ولعلها اقدم مدينة تم الكشف عنها حتى الآن ، فهي تعود الى أواخر الالف الرابع ومطلع الالف الثالث قبل الميلاد ، عاشت حوالي ١٥٠ عام (٣١٠٠ - ٢٩٥٠ ق.م) ، ثم انقرضت وعفى عليها الزمان . المدينة معاصرة للوركاء (أوروك) في جنوب الرافدين لكن التنقيبات الاثرية لم تكشف حتى الآن عن معالم وخطط مدينة اوروك كما اننا لا نعرف شكل السور الذي بناه البطل الاسطوري جلجامش في أوروك . اما في تل حبوبة وتل قناص فأصبحنا نعرف تفاصيل خط المدن وشكل أسوارها في عصر حضارة أوروك . عثر المنقبون على لوائح كتابية ، لكن الكتابة في ذلك الزمان اقتصرت على الارقام وبالتالي لا نعرف اسم المدينة الرابضة في هذا المكان . تمتد حبوبة اكثر من كيلو متر على طول الفرات . بيوتها كبيرة وثلاثية الاقسام (صالة طويلة في الوسط وغرف مربعة على الجانبين) ، وهذا طراز فريد في تاريخ العمارة ، كما نواجه في البيوت صالات على هيئة حرف (تي) لاتيني . شوارعها مرصوفة بالحصى ، ومجاري تصريف المياه من البيوت عبر الشوارع الى خارج المدينة مصنوعة من انابيب الفخار . اقنية تجر الماء من الفرات لسقي الحدائق والجنائن في وسط المدينة .

سور المدينة مزدوج ـ واحد بسيط في الامام وآخر رئيسي في الخلف ، لكنه سميك ومفصل بالدعامات والمحاريب ، وهذا اقدم نموذج معروف حتى الآن . كانت الاواني والادوات المنزلية في مكانها في الغرف والباحات وكأن اهل المدينة قد تركوا منازلهم فجأة ولم يعودوا اليها منذ ذلك الزمان ، فلا أثر لاستيطان لاحق فوق هذا المكان . كان الاهالي يمارسون التجارة وذلك بدلالة الاواني الفخارية الكثيرة والسدادات الطينية المطبوعة بالاختام الاسطوانية . وللاسف لا نعرف بوجه الدقة أسباب الخراب ، فالفرات حتى نشوء بحيرة السد كان يمر بهذا المكان لكننا لا نستطيع أن نجزم بأن الفرات ظل على هذه الحال مرورا بكل الاجيال .

١٦ ـ موقع شمس الدين :

قبالة حبوبة على جانب الجزيرة من الفرات كان يقوم موقع شمس الدين قبل أن تغمره مياه البحيرة . قامت بالتنقيب في هذا المكان بعثة اثرية من الجامعة الامريكية ببيروت ، وكشفت عن معالم مستوطنة من عصر حضارة تل حلف (الالف الخامس قبل الميلاد) . ولقد تميزت هذه الحضارة بأوانيها الفخارية المدهونة بأجمل الرسوم الهندسية الملونة وبالصنعة الدقيقة . كانت البيوت مستديرة وأساساتها من الحجارة ، وفي داخل البيوت أفران ومواقد .

عرفت هذه الحضارة التي لا نعرف اسم مؤسسها وحملة الويتها ، لاول مرة في موقع تل حلف قرب راس العين ، وباسم هذا التل تسمت . ويظهر فخار تل حلف في كثير من تلال محافظة الجزيرة لكن موقع شمس الدين على الفرات هو ابعد نقطة في الغرب تصل اليه هذه الحضارة .

ازدهر موقع شمس الدين خلال هذا العصر فقط ولم يعرف السكن بعد ذلك . ولابد أن كان الفرات ملاصقا له لكن الفرات كان يبتعد عنه نحو الغرب عدة مئات من الامتار عندما بوشر التنقيب فيه .

١٧ ـ قلعة نجم :

نعود الى الجانب الشامي ونصعد الفرات قريبا من منبج لنواجه قلعة شامخة تعرف باسم قلعة نجم . وتشاهد القلعة اليوم بابنيتها الرائعة المشيدة بالحجارة الكلسية المتقنة النحت تطل على الفرات ونشاهد عليها كتابات ايوبية تشير الى تجديدها في دولة السلطان الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين ، بعضها مؤرخ في سنة ١٢٠٨ ميلادية وبعضها الآخر مؤرخ في سنة ١٢١٥ . واقدم خبر عنها رواه المؤرخ ابن العديم في ٩٤١ م .

لابد أن خربت القلعة في اعقاب الغزو المغولي وتقوم المديرية العامة للآثار والمتاحف الآن بترميمها واعادة الاعتبار اليها .

١٨ ـ جرابلس / كركميش :

وهي المحطة الاخيرة في رحلتنا الصاعدة على الفرات فهي تقع على الحدود السورية التركية لكن الموقع الاثري موجود في الجانب التركي من الحدود الحالية .

قامت بالتنقيب في هذا المكان بعثة أثرية بريطانية بين ١٩١١ و ١٩٢٠ وحققت اكتشافات اكدت وجود مدينة كركميش في هذا المكان .

ترددت أخبار كركميش في نصوص ايبلا من الالف الثالث قبل الميلاد وفي نصوص ماري من القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد وفي النصوص الحثية المؤرخة بين القرن الرابع عشر وأواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

كانت كركميش مستوطنة كبيرة في عصر تل حلف (الالف السابع والالف السادس قبل الميلاد) . واصبحت مدينة محصنة وكبيرة منذ مطلع الالف الثاني . تهدمت على يد شعوب البحر في حوالي ١٢٠٠ ق.م لكن سرعان ما عادت الحياة اليها وتوسعت المدينة من جديد .

تعود معظم المباني التي تم الكشف عنها أثناء التنقيبات الى الفترة الواقعة بين ١٢٠٠ و ٧٠٠ ق.م ؛ حيث ظهر سور المدينة والابراج والحصن كما ظهرت ألواح حجرية كبيرة منحوتة بأشكال نافرة تعود الى العهد الحثي الحديث (القرن التاسع قبل الميلاد) .

احتلها الآشوريون في ٧١٧ قبل الميلاد ثم دمرها نبوخذنصر في ٦٠٥ ق.م . تبلغ مساحة المدينة في الداخل ٤٠ هكتارا ولها ثلاث بوابات ضخمة ، والمدينة الموسعة لها سور وأبواب .

وتبلغ المساحة الاجمالية للمدينة بقسميها حوالي /٩٥/ هكتارا .

لعبت كركميش دورا هاما في العلاقات السياسية والاقتصادية بين ممالك آشور وماري وحلب . واحتلها الحثيون مرارا ووصلت الى القرب منها جيوش تحوتموس الثالث تاريخها حافل بالاحداث فموقعها الجغرافي وتحكمها بطرق المواصلات التجارية النهرية والبرية ووجودها في تقاطع الطرق بين الرافدين والشام والاناضول جعلا منها مملكة خطيرة الشأن .

* * *